تقهقر نابليون عن روسيا

لفكتور هوجو

[مهداة إلى المنفى بعد وضع الرحل مكان الثلج]

كانت السماء تُساقطُ الثلج ؛ وكان الفاتح قد قهره فتحه ، والنسر لأول مرة تطامن رأسه

يا للأيام العوابس ! لقد تقهقر الإمبراطور وئيد الخطى تاركاً وراءه (موسكو) داخنة تحترق !

كانت السماء تساقط الثلج ؛ والشتاء القاسي يتدهدى قطعة قطعة ، والبقاع البيض تتعاقب بقعة فبقعة ، والجيش قد وقع في غمّاء فلا يُعرف له قائد ولا علَم ؛ وكان بالأمس أعظم الجيوش فأصبح اليومَ قطيعاً من النَّعم ؛ واضطرب الأمر وتشعث النظام فلا يتبين له جناحان ولا قلب

كانت السماء تساقط الثلج ، والجرحى يلوذون ببطون الخيل المبقورة ؛ ونافخو الأبواق على مداخل المعسكرات الملية المحطمة قد جمّدهم الصقيع، وغشّاهم البَرَدُ ، فظلوا في أماكنهم واقفين على العتبات ، أو صامتين على السُّرُج ، وأفواههم الحجرية قد التصقت بأبواقهم النحاسية ؛ والسماء تندف بالرصاص والقنابل مختلطة بكُبب الثلج ؛ وجنود الحرس الإمبراطوري يتجاهم الروْع فيمشون مفكرين وقد انعقد رُضابُ الجليد على شواربهم الغُبر

كانت السماء تساقط الثلج ، والريح الصرصر تهب ، والجنود يمشون حفاة على الطوى في مجاهل الأرض، لم يعودوا تلك القلوب التي كانت تنبض ، ولا تلك النفوس التي كانت تحارب ، وإنما أضحوا حلماً يهيم في الضباب، وسراً يجول في الظلام، وموكباً من الأشباح يضطرب في الأجواء القاتمة ؛ وكانت الوحدة شاملة الروعة تبدو في كل مكان صامتة منتقمة ، والسماء انشأت تجعل من طباقها ومن ركام الثلج كفناً عظيماً لهذا الجيش العظيم . وكان كل جندي يحس في نفسه دبيب الموت في وحدة ووحشة

هل يتيح لهم القدر أن يخرجوا من هذه الأرض المشئومة ؟ لقد كانوا أمام عدوين: القيصر وريح الشمال ، والشمال كانت عليهم أشد . كانوا يلقون المدافع ويشعلون النار في خشبها ليستدفئوا ؛ وكان كل من رقد منهم لا يصحو من رقاده ؛ وكانوا يفرون شراذم في وجوه الضلال والهم فتتخطفهم المنايا وتبتلعهم الصحراء؛ فلو نظرت من صدعات الجليد لرأيت كتائبهم تحت أطباقه راقدة

يا لَسقطة هنيبال وعُقبى أتيلا ! لقد كان المهزومون والجرحى والموتى وصناديق الذخيرة وناقلات المرضى يتساحقون على الجسور ليعبروا الأنهر ؛ وكان الجند ينامون عشرة الآف فيستيقظون مائة ؛ و (ني) الذي كان يتبعه جيش من قبل ، فر الآن بعد أن نازع ثلاثة من القوزاق ساعته

كانت الهتفات لا تنفك طول الليل تشق الآذان : من هذا ! هيا ! هجمة ! حملة ! فيتناول هؤلاء الأشباح بنادقهم فيرون أنه قد هجمت عليهم كتائب من الخيّالة القطاع ، وزوابع من الرَّجّالة الشقر ، لهم صور كصور الغُول المفزعة ، وأصوات كأصوات البُزاة الصُّلع ! وهكذا باد في غياهب الليل جيش بأسره !

وكان الامبراطور واقفاً هناك ينظر ! كان كالسنديانة العملاق تفرعت ذراعاها المصونة نكبةُ الدهر، وهي الحطاب المشئوم، ثم أخذ يهين عظمتها بفأسه ، والسنديانة الحية ترتجف أمام شبح الثأر الناجع وتنظر إلى فروعها تتساقط من حولها فرعاً بعد فرع .